وأخذت تلحُّ عليَّ بالضم والتقبيل تهدئني وتترضاني، وأنا لذلك كارهة أشد الكره، وعلى ذلك ساخطة أشدَّ السخط، ولو استجبت لنفسي لصحت مستنجدة طالبة الغوث؛ فقد أخذت أمقت نفسي وألومها، وألعن هذه اللحظة التي خطر لي فيها أن آوي إلى دار هذه المرأة ريثما أهيِّئ أمري بعض الشيء وأدبر لي عملًا أمضي فيه.

ولكن زنوبة ملحة عليَّ بالرفق والملاطفة، وقد خفت صوتها وعذب حديثها، وأخذت تتحدث إليَّ بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة، كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوءني أو يروعني أو يقلقني عن هذه الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامي أيامًا أو أسابيع.

ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتًا غير قليل في حديث هادئ فيه الجد وفيه الهزل، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من عطفها، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف، وإذا نحن قد تغدينا معًا، وإذا كل واحدة منا قد أخذت تتحدث إلى صاحبتها في شيء من السذاجة والثقة غريب، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبتها من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالًا مستترًا من تماثيل الشقاء، وإذا كل واحدة منا ترثي لصاحبتها أو تتخذ الرثاء مظهرًا من مظاهر الرثاء لنفسها، وإذا نحن نشترك في البكاء ونتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك ونستبق إليه، ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيننا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن احتفظ بشيء من الاحتياط … فلم أُظهر زنوبة على سري، ولكني أنبأتها بأن أختي قد قضت في الغرب، وزعمت لها أني إنما خرجت من بيت المأمور في إثر مغاضبة كانت بيني وبين الخدم، ثم لم أظفر بما كنت أراني أهلًا له من الإنصاف، وقد سمعت مني ما أقول وهي إلى التكذيب أقرب منها إلى التصديق، ولكنها تجنبت الجدال والإلحاح فيه، وأظهرت الرثاء لي والعطف عليَّ، ووعدتني بأنها ستجد لي عملًا شريفًا مريحًا إذا كان الغد، وألحت عليَّ في أن أقضي الليل معها وقد فعلت، وقد أنفقنا جزءًا غير قليل من الليل في مثل ما أنفقنا فيه النهار، فلما أصبحنا غابت عني ساعة أو نحو ساعة، ثم عادت إليَّ متهللة مشرقة الوجه وهي تقول: لقد وجدت عملًا ما أشك في أنه سيرضيك، ستعملين حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحلن عن المدينة في بيت فلان، أتذكرين اسمه؟ أتعرفينه؟ إنه رجل من أصحاب الثراء واليسر، وقد لا تجدين في داره مثل ما كنت تجدين في دار المأمور